مجلَّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلَّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz




التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/16م

قراءة في الدوافع والنتائج

الطالبة: أسماء ابلالي

طالبة دكتوراه – جامعة أدرار

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على أهم الدوافع التي حركت إسبانيا لاحتلال موانئ المغرب الأوسط (الجزائر) حيث يعالج بالشرح والتفصيل دوافع التحرشات الاسبانية على سواحل المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي التي كانت تهدف اسبانيا من خلالها ضم بلاد المغرب الإسلامي متذرعة بحجة تتبع المسلمين الفارين من الأندلس، مستغلة ضعف الامارات المغربية المفككة، وبهذا بدأت صفحة جديدة في تاريخ المغرب العربي أدت إلى ظهور قوة ثانية في المنطقة وهم الأتراك العثمانيون الذين هبوا لمساعدة اخوانهم في الشمال الافريقي من خطر الإسبان والصليبية خلال العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية:

الاسبان – الأتراك العثمانيون – المغرب الأوسط – عروج – خير الدين – فرديناند – ايزابيلا – الحروب الصليبية – الزيانيون – وهران – المرسى الكبير – أندريا دوريا – محاكم التفتيش – سليم الأول – بيدرو نافارو – سالم التومي – أبا حمو الثالث – شارلكان – الانكشارية.

Summary :

Spanish harassments along the Middle West cost throughout the 16 th century A.D was considred as completion for the crusades wich stopped islamic Estern parts after started in the West. That s why we can not seprate that object from its general framework. When spain colonizes gradually the Middle West, it tried to control the small city states. But the Ottmans had faced the spanish plan whitch could change the destiny of the Midle West if it succeeded.In this article, we will try to highlight the causes behind the Spanish harassments on the ports of the Middle West and their parts of colonization in addition to this, how were The Ottmans able to free them .

Keywords:

Spaniard – Turkish Ottmans – Middle West – Arronge – KHIR-ADDINE – FRDINAD – AZABELLA – The Crusades – Alzayanion – Oran– Anderya Dourya – Chech Courts – SALIM

مقدمة:

تُعد التحرشات الإسبانية على سواحل **المغرب الأوسط** خلال القرن السادس عشر الميلادي (16م) فصلاً مكملاً لفصول الحروب الصليبية التي توقفت بالمشرق الإسلامي لتبدأ بمغربه، لذا لا يمكن فصل هذا الموضوع عن إطاره العام، فإسبانيا انتهجت في احتلالها للمغرب الأوسط المرحلية في التوغل، فبعد أن احتلت أهم الموانئ والمدن الساحلية سعت إلى القضاء على الإمارات الداخلية المفككة، إلا أن ظهور الأتراك العثمانيين في هذه المنطقة وتصديهم للحركة الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية على حد السواء حال دون تنفيذ المخطط الإسباني الذي كان بإمكانه تغيير مصير المغرب الأوسط لو قُدر له النجاح.

فما هي الدوافع التي حركت الإسبان لاحتلال موانئ المغرب الأوسط؟ وما هي الخطة التي اعتمدتها اسبانيا في ذلك؟ وكيف تمكن العثمانيون من التصدي لهذا الاحتلال وتحرير موانئ المغرب الأوسط من السيطرة الإسبانية؟

أولاً: دوافع التحرشات الإسبانية على موانئ المغرب الأوسط[1].

إن الحديث عن أي فعل أو رد فعل لأمة ما من الأمم لابد أن يكون وراءه دوافع محركة حتى لا يكون اندفاعاً تطرفياً ليس وراءه غاية أو هدف، ومن هذا المنطلق فالتحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، لم تكن صدفة ولا بنت ساعتها، وإنما جاءت نتيجة تراكم عدة أسباب ودوافع يمكن تقسيمها إلى التالي:

1 - إن عبارة **المغرب الأوسط** التي أتفق جل المؤرخين على أنها الجزائر الحالية لم تكن تعني هذا بالضبط، فهي عبارة أطلقها العرب المسلمون مثلها مثل المغرب الأدنى والمغرب الأقصى كانت من الناحية الجغرافية غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي، ينظر: أبو القـاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى 14 هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، (ج1)، ص 28.

1- الأسباب الدينيـــة.

تُعد أقواها نظراً للعداوة التقليدية ما بين الإسلام والنصرانية والتي ترجع في تاريخها إلى بداية الدعوة المحمدية، وانتشار الدين الإسلامي في أقطار العالم، وغذى هذا الصراع التعصب الديني الذي دعا إليه رجال الدين المسيحي من قساوسة ورهبان، حيث أشعلوا الحماس الصليبي لدى الجموع الأوروبية عامة والإسبانية خاصة لمحاربة الدين الإسلامي والمسلمين، فقد دعا البابا "إسكندر السادس" (بورجيا الشهير) Alexander VI Borgia[1] من مدينة روما عاصمة الكرسي الرسولي أن تسخر البلاد المسيحية طاقاتها المالية والبشرية تحت تصرف ملوك إسبانيا لإبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس، ولإخضاع شمال إفريقيا للحكم المسيحي وللديانة المسيحية[2]، كما عمل البابوات على تزويد الجيوش المسيحية بالمال والعتاد، فاستجابت إسبانيا للنداء لكونها زعيمة العالم المسيحي وحامية المسيحية آنذاك بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية على يد العثمانيين سنة 1453م، وضعف سلطة البابا في روما بفعل ظهور حركات الإصلاح الديني في أوربا[3].

1- **البابا اسكندر بورجيا الشهير:** من مواليد جاتيفا بإسبانيا سنة 1431م أصبح بابا من سنة 1492م حتى سنة 1503م وقد مارس دوراً كبيراً حتى أطلق عليه أنه أمير أكثر منه بابا أو رجل دين، أشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين أصدر سنة 1494م عهداً يبارك به الصليبية الأسبانية بإفريقيا، ينظر، بسام العسلي: خير الدين بربروس، (ط2)، دار النفائس، بيروت: (1986)، ص 59.

2- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، وثائق ودراسات، (ط3)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: (1984) ، ص 80.

3- **الإصلاح الديني:** هو ثورة دينية قامت في أوربا الغربية في القرن 16 م بدأت بشكل حركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية ولكنها تحولت إلى حركة عقائدية عرفت بالبروتستانتية، ينظر مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية الميسرة، (ط2)، دار الجيل، بيروت: (2001)، (مج1)، ص 230.

وكُللت هذه الاستجابة بالمصاهرة التي تمت ما بين "فريديناند"[1] الكاثوليكي حاكم أرغون و"إيزابيلا"[2] وارثه عرش قشتالة، وبهذا توحدت إسبانيا الكاثوليكية المسيحية عام 1479م حاملة على عاتقها مهمة تمسيح بلاد شمال إفريقيا الإسلامية.

فبعد سقوط غرناطة غرة ربيع الأول 897هـ/2 جانفي 1492م شنت إسبانيا حملات واسعة النطاق ضد المسلمين الأندلسيين، فقد امتثل العديد من الموريسكيين أمام دواوين التحقيق لأنهم كثيراً ما تكلموا أو أظهروا تعلقهم بالإسلام أو انتقادهم للمسيحيين[3] وانتقاماً منهم قام الراهب "هرناندو"[4] بتنصير الآلاف من المسلمين، بل وقام الإسبان بتتبع مسلمي الأندلس إلى سواحل شمال إفريقيا للانتقام منهم يحثهم على ذلك الكاردينال "اكزمينيس" (Ximenés)[5] الذي عمل على تمسيح المغاربة حتى يجنب إسبانيا خطرهم، خاصة ونحن نعلم بأن أهل شمال أفريقيا حملوا مهمة

1 - **فرديناند الخامس الكاثوليكي**: من مواليد سوز (1452-1516م) تولى الملك سنة 1474م أشتهر بأنه سياسي عنيد وجريء تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة ووحد تقريباً كل شبه الجزيرة الأيبيرية مما ساعده على القضاء على مملكة غرناطة عام 1492م، ينظر بسام العسلي: خير الدين بربروس، (ط2)، دار النفائس، بيروت: (1986)، ص 44.

2- **إيزابيلا الأولى الكاثوليكية**: ملكة قشتالة من مواليد مدريد (1451-1504م) تزوجت من فرديناند ملك أرغون مما ساعد على توحيد إسبانيا عملت على إقامة محاكم التفتيش وشجعتها لإبادة المسلمين ودعمت وزيرها أكزمينيس لإدارتها، ينظر بسام العسلي: مرجع نفسه، ص ص (44-45).

3- لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492-1640)، تعر، وتقد، عبد الجليل التميمي، (ط1)، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس، (1983)، ص 27.

4- **هرناندو دوتا لافيرا**:أسقف غرناطة في ذلك الوقت يُعد من أنصار النظام القديم والمتمثل في المحافظة على الوضع كما هو عليه بين المدجنين والمسيحيين القاضي بالانتصار قبل التعميد، ينظر لوي كاردياك: مرجع نفسه، ص 111.

5- **الكاردينال أكزمينيس أوخمينيس**: اسمه (François Timenesde) ولد في قشتالة (1436-1517م) عين أميناً لسر المملكة سنة 1492 ثم كاهناً لطليطلة 1495 ثم حاكماً حتى وفات الملكة إيزابيلا 1504 ثم رئيساً لمحاكم التفتيش (1506-1516م)، احتل وهران 1509م أشتهر بقسوته في إبادة المسلمين وتنصيرهم، ينظر بسام العسلي: مرجع سابق، ص 45.

مواصلة الكفاح ضد المسيحيين مع الفارين الأندلسيين عقب سقوط غرناطة، فكانوا يغيرون على سواحل الإمارات الإسبانية كبلنسية وكاتالونيا وغيرها من المدن الساحلية.

ولمنع هذه القرصنة[1] – كما سماها الإسبان – سعى "فرديناند" إلى السيطرة على الموانئ التي يشن القراصنة (الغزاة المغاربة) العمليات منها، كما دعت إيزابيلا أن يحققوا أمنيتها الغالية على قلبها ألا وهي "فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار"[2]، فكان أن أرسلت جواسيسها للتعرف على أوضاع المغرب الإسلامي، فجاء تقرير جاسوسها "فرديناند زافرا" سنة 1494م كالتالي : « أن كل البلاد في حالة يبدو أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة»[3].

وتحت ضغوطات الكنيسة وعلى رأسها الكاردينال "اكزمينيس" جهزت إسبانيا أسطولاً ضخماً لغزو شمال أفريقيا بمباركة من البابا "ألكسندر السادس" عام 1494م، مما يدل على أن العدوان صليبي هدفه ضرب الإسلام والمسلمين في هذه البـلاد.

فالتعصب الديني والرغبة الجامحة لدى رجال الكنيسة وملوك المسيحية لتنصير المسلمين وإبعادهم عن أراضيهم في الأندلس وإنقاذ شمال إفريقيا من وحشية

1- **القرصنة**: هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة عليه، وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وهي تختلف عن لصوصية البحر التي يقوم بها مغامرون من أجل السلب والنهب وانتشرت القرصنة انتشاراً هائلاً بعد اكتشاف القارة الجديدة (أمريكا)، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 72، وكانت نوعاً من الحروب المشروعة النظامية التي شاركت فيها كل دول العالم ولم يكن المسلمون خلالها إلا مدافعين ولم يكن عندهم بحال من الأحوال (لصوصية البحر) فكانوا يسالمون من يسالمهم ويحموه ويحاربون من يحاربهم، ينظر: أحمد توفيق المدني: حياة كفاح ، (القسم الثاني)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د،ت، ص 268.

2- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 80.

3- جون، بـ وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة، الوطنية للكتاب، الجزائر، (1986م) ، ص26.

الإسلام – كما يدعون – كانت وراء تحرك الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر (15م) لغزو سواحل الشمال الإفريقي.

2- الأسباب السياسية والعسكرية.

لم تكن أقل خطورة من سابقتها فبعد الاستقرار السياسي الذي عرفته إسبانيا على إثر توحيد مملكتي الكاستيل (قشتالة) و(الأرغون) في دولة إسبانية واحدة عام 1479م استولى "فرديناند" و"إيزابيلا" على زمام الأمور بيد من حديد تحمل السيف والإنجيل في آن واحد[1].

فبعد الانتصار الذي حققاه على مسلمي الأندلس فكرا في توسيع ملكهما لخلق إمبراطورية مترامية الأطراف فوجها أنظارهما إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي لاحتلال سواحله يحركهما في ذلك دافع التملك والتفوق والجشع الاستعماري.

ففترة الثمانية قرون التي حكم فيها المسلمون الأندلس كانت لا زالت ماثلة في أذهان الإسبان بما تخللها من حوادث وهزائم، من فتح إسلامي لإسبانيا عام 711م على يد "طارق بن زياد" ، ونجدة المرابطين والموحدين لإخوانهم في الأندلس ولجوء الأخيريْن إلى بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة مستنجدين بإخوانهم هناك. لذا رأوا ضرورة تتبع المسلمين إلى مكان فرارهم (شمال إفريقيا) مدعين بأن الأساطيل الإسلامية كانت تغزو السواحل الأوروبية وتنهبها، وهذا خوفاً من أن يعيد المسلمون المغاربة الكرة عليهم ويسترجعوا الأندلس من جديد، وهو تكتيك حربي الغرض منه إفشال خطة العدو وإشغاله بنفسه في عقر داره، أي حمل الحرب إلى أرض العدو، هذا في الوقت الذي دبَّ فيه الضعف والشقاق في صفوف المسلمين بشمال إفريقيا بسبب الحروب الداخلية والفتن والنزاع على السلطة.

وهكذا جاء ملوك الإسبان والبرتغال واحتلوا أهم المدن الساحلية للمغرب الإسلامي مستغلين في ذلك الفراغ السياسي الذي حلّ بدول هذا القطر.

1- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 86.

3- الأسباب الاقتصادية.

نتج عن الحروب الصليبية[1] التي دامت أكثر من قرن (1095-1291م) ظهور مستودعات تجارية أسهمت في تطور الحركة التجارية في العالم، فترتب عن هذه الحركة التجارية التي امتدت إلى أقصى الشرق زيادة المعرفة الجغرافية، وبهذا ظهرت النزعة الاستعمارية التوسعية لدى دول أوربا، خاصة الكبرى منها مثل إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تمثلان القوى التقليدية العظمى آنذاك، وهذا لفرض سلطانها المالي والتجاري على العالم، ساعدهما في ذلك حركة الكشوفات الجغرافية التي أطلقاها إثر سقوط غرناطة سنة 1492م بعد أن كانت مشلولة بسبب الحرب حول شبه الجزيرة الأيبيرية[2] وسيطرة العرب على تجارة التوابل آنذاك فكان من الطبيعي أن تكون إفريقيا هي المستهدف الأول نظراً لعامل القرب الجغرافي، يضاف إليه هجرة المسلمين الأندلسيين إلى سواحل المغرب الإسلامي وهي النقطة التي أفاضت الكأس، حيث وجدت إسبانيا في ملاحقتهم ما يبرر وجودها في هذه الناحية خاصة وأن شبه الجزيرة الأيبيرية بعد حركة الكشوفات الجغرافية أصبحت بحاجة ماسة إلى أسواق لتصدير الفائض من الإنتاج، وإلى ثغور ساحلية تستقبل أساطيلها المحملة.

فوُجهت هذه الحركة الاستعمارية ضد العرب المسلمين للقضاء على تجارتهم الواسعة فيما وراء البحار، خاصة تجارة التوابل في بلاد الهند، وتعززت هذه الهجمة

1- لقد تصالح المؤرخون على إطلاق **الحروب الصليبية** الممتدة بين سنتي (488-690هـ/1095-1291م) على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوربا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سادت غرب أوربا في القرن 11م، ينظر، علي محمد الصلابي: دولة السلاجقة، (ط1)، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة: (2006)، ص 429.

2- وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعليق وتقديم، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، (1980) ، ص 27.

الاستعمارية بانعقاد مؤتمر "توردي سيلاس" 1494م[1] الذي أطلق أيادي الإسبان والبرتغاليين على أراضي المغرب الإسلامي.

وعلاوة على ما تقدم ذكره فإننا إذا نظرنا للحالة أو الوضع الاقتصادي لإسبانيا في ذلك الوقت يعني في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م نجد أنها كانت تعيش انهياراً اقتصادياً عمَّ جميع البلاد، وهذا بسبب فقدانها لتلك الطاقات الحيوية النشيطة من مسلمي الأندلس واليهود الذين أبعدتهم فشعرت بفراغ مسها في جميع المجالات حتى أصبحت حياتهم حياة كسل وخمول فانحطت الأخلاق، وبارت الأرض، واندثر العمران، وكسدت التجارة وأصاب إسبانيا انهيار اقتصادي،[2] فكان عليها أن تحتل السواحل المغربية لتدر خيرات المغرب الإسلامي على سواد شعبها خاصة وأن هذه المنطقة تحظى بموقع استراتيجي مكنها من الارتباط تجارياً مع إفريقيا الوسطى، وأن احتلالها يعني القضاء على حركة القرصنة الإسلامية التي كانت تغزو السواحل الأيبيرية آنذاك.

فجميع هذه الأسباب من دينية وسياسية واقتصادية دفعت إسبانيا إلى احتلال سواحل المغرب الأوسط، هدفها في ذلك أن تضم شمال البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الجنوبي منه الذي يضم سردينيا وكورسيكا وصقلية وجزر البليار لتحيي بذلك سياسة بحرنا الرومانية.

1- معاهدة **توردي سيلاس 1494م** عقدت عقب نشوب الصراع بين البرتغال وإسبانيا للوصول الى الهند عن طريق الاتجاه نحو الغرب وتأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها كل منهما بما فيها المغرب الإسلامي فتوسط البابا اسكندر السادس في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم، قضت المعاهدة أن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي (46و37º غرباً) في حين يكون لاسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط ، ينظر، عبد القادر فكاير: العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية: دورية كان التاريخية، (ع18)، ديسمبر 2012، ص 25.

2- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 89.

ثانياً: الاحتلال الإسباني لموانئ المغرب الأوسط (1505-1531م)[1].

لقد كان للأسباب السابقة الذكر سبباً في التحرك الإسباني لغزو سواحل المغرب الأوسط، فعلى إثر توقيع معاهدة "توردي سيلاس" 1494م التي قسم فيها البابا "اسكندر بورجيا السادس" العالم ما بين إسبانيا والبرتغال أشتد حماس الكاردينال "اكزمينيس" المتعصب للمسيحية، فدعا إلى محاربة مسلمي الشمال الإفريقي مثيراً مخاوف الملكة "إيزابيلا" من الهجوم المضاد المحتمل من طرف مسلمي الشمال الافريقي، فاستجابت الملكة لدعوته، وشرعت في إعداد حملة كبيرة ضد المغرب الأوسط الذي كان من نصيب إسبانيا طبقاً لما جاء في نص المعاهدة، إلا أنها توفيت سنة 1504م قبل أن تحقق مشروعها ورغبة وزيرها "اكزمينيس"، ومر احتلال سواحل المغرب الأوسط بالمراحل التالية:

1- احتلال المرسى الكبير[2] ووهران (1505م – 1509م).

صمم "فرديناند" الكاثوليكي على تنفيذ وصية زوجته "إيزابيلا" في احتلال شمال إفريقيا، ونظراً لفراغ خزينة الدولة من المال تولت الكنيسة هذه المهمة، وعلى رأسها الكاردينال "اكزمينيس"، وبهذا اجتمعت السلطتين الزمانية والروحية على غزو سواحل المغرب الأوسط.

1 – لقد حصر بعض المؤرخين الجزائريين تاريخ احتلال الإسبان للموانئ الجزائرية ما بين سنوات (1505-1510م) مثل أحمد توفيق المدني إلا أننا توقفنا عند سنة 1531م باعتبار أن هذه السنة تم فيها احتلال مرسى هنين الساحلي القريب من تلمسان من طرف الإسبان عقب حملة أندريا دوريا على شرشال وإن كانت الفترة ما بين (1511-1531م) لم يتمكن الإسبان خلالها من احتلال موانئ جديدة في المغرب الأوسط بفعل مجيء الأخوين عروج وخير الدين إليه.

2- يبعد المرسى الكبير عن وهران بضعة أميال (مسافة 8كلم)، لقد تعرض المرسى الكبير لاحتلال البرتغاليين سنة 1415م وطردوا منه سنة 1437م واحتلوه من جديد سنة 1471 م وخرجوا منه سنة 1477م ثم هاجموه سنة 1501م إلا أن هجومهم فشل، ينظر، بسام العسلي: مرجع سابق، ص 50.

وبالفعل فقد جهر الكاردينال "اكزمينيس" سنة 1505م أسطولاً مكوناً من مائة وأربعة وثلاثين سفينة على متنها خمسة آلاف محارب تحت إمرة القائد "دون ديقو فرنانديز" ويقوده "رايموند دي قرطبة".

أبحرت الحملة الإسبانية من مالقة يوم الأربعاء 29 أوت 1505م ووصلت يوم 11 سبتمبر[1] إلى المرسى الكبير في الوقت الذي تفرق فيه المسلمون الذين جاؤوا للدفاع عن المرسى نظراً لقلة المؤن فلم يبقَ منهم سوى خمسمائة مجاهد لحمايته، لم يتمكنوا من منع الإسبان من النزول إلى البر رغم المقاومة العنيفة التي دامت ثلاثة أيام، فاستشهد قائد الحامية، وتمكن الإسبان من احتلال المرسى الكبير يوم 23 أكتوبر 1505م بعد حصار دام خمسين يوماً، ودخلوا المدينة وعاثوا فيها حولهم سلباً ونهباً[2] واتخذوا من المرسى الكبير ميناء لإرساء سفنهم بعدما أمضوا مع أهل المرسى اتفاقية تضمن لهم الحياة وحرية الانسحاب من المدينة، وبانسحابهم دخل الإسبان إلى المدينة ورفعوا أعلامهم وأقاموا صلاة الشكر وحولوا مسجدها إلى كنيسة سميت بكنيسة "القديس ميكائيل"[3].

والواقع أن سكان المرسى قبلوا بالاستسلام نتيجة قلة إمكاناتهم العسكرية أمام قوة الإسبان المتطورة، إذ يؤكد المؤرخون بأنهم قاتلوا بكل ما أوتوا من قوة قبل استسلامهم، كما أن أهالي الداخل أسرعوا لنجدتهم[4].

ثم اتجه الإسبان لاحتلال مدينة وهران لتوسيع نطاق قاعدتهم إلى هذه المدينة التي تحظى بموقع جغرافي استراتيجي أكسبها أهمية بالغة، واستجابة لضغوطات

1- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 96.

2- مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: (1986م) ، (ج2)، ص 488.

3- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 98.

4- أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص ص (99-100).

الكاردينال "اكزمينيس" جهز الجنرال "بيدرونافارو" Navarro[1]) حملة مكونة من ثلاثة وثلاثين مركباً حربياً وواحد وخمسين زورقاً صغيراً على متنها خمسة عشر ألف جندي، أبحرت الحملة من ثغر قرطاجنة يوم الأربعاء 26 محرم 915هـ/15 ماي 1509م، ووصلت يوم الجمعة 17 ماي[2] من نفس العام فنزل المشاة بساحل وهران يتقدمهم الكاردينال "اكزمينيس" ورهبانه رافعين الصليب، وفي طريقهم إلى وهران احتلوا مدينة "المدية"، وحاولوا احتلال وهران ففشلوا نظراً لحصانتها، إلا أنهم سرعان ما تمكنوا من دخولها بواسطة اليهودي "سطورا"[3] الذي تمكن من فتح باب المدينة للإسبان بمساعدة الخائنين "عيسى العريبي" و"ابن قانص"[4] فدخلها الإسبان ودارت المعركة بينهم وبين أهالي المدينة، واستحل الإسبان المدينة وارتكبوا فيها مجزرة فذبحوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف، وأنقذوا ثلاثمائة أسير مسيحي[5] ودمروا بيوتها وحولوا مسجدها الأعظم إلى كنيسة، وهو ما أثار غضب علماء وأدباء المدينة الذين دعوا أهلها إلى الدفاع عنها واسترجاعها من يد الإسبان. وأقامت

1- **بيدرو نافا رو** Pedro Navarro قائد إسباني قاد حملة على وهران عام 1509م وأخرى على مدينة طرابلس الغرب وبجاية عام 1510 عزل عن ولايته في مدينة بجاية بعد خيبته في احتلال جزائر قرفنة فغادر بجاية نهائياً يوم 7 جوان 1511م، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 145.

2- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، (ط2)، دار الثقافة، بيروت: 1983م،(ج2)، ص 203.

3- **اليهودي ستورا** أو **سطورا** كان من مهاجري الأندلس ومن الذين أنقذتهم عدالة الإسلام في وهران من المحارق الإسبانية أستخدمه حاكم وهران قابضاً للمكوس فخان المسلمين بفتح أبواب وهران أمام الغزاة الأسبان الذين كافؤوه بعد ذلك بتعيينه لجباية الخرجات البرية والبحرية وتوارثها عنه بنوه من سنة 915هـ إلى سنة 980هـ، ينظر بسام العسلي: مرجع سابق، ص 66.

4- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من بداية ولغاية 1962، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت: (1997)، ص 47.

5- مبارك بن محمد الميلي: مرجع سابق،(ج2)، ص 488.

إسبانيا بوهران حامية عسكرية منحت لقائدها اسم "قائداً عاماً لمدينة وهران وحامية المرسى الكبير ومملكة تلمسان"[1].

مما يدل دلالة واضحة لا غبار عليها بأن احتلال وهران والمرسى الكبير ما هو إلا تمهيد لاحتلال تلمسان عاصمة بني زيان، وبالتالي القضاء على مُلكهم، خاصة ونحن نعلم أن إسبانيا في وضعها لمخطط احتلال المغرب الأوسط أعطت الأولوية للسواحل والموانئ المهمة ثم التغلغل في الداخل، إلا أننا سوف نلاحظ بأن هذا الاحتلال كان سطحيا لم يستطع أن يتعدى السواحل إلى الداخل بفعل ردة فعل السكان الأصليين ومقاومتهم للإسبان التي دعمها مجيء العثمانيين إلى المغرب الأوسط.

2- احتلال بجاية وعنابة (1510م).

أخذت إسبانيا المسلحة بالحقد المسيحي والدهاء السياسي بعد احتلالها للمرسى الكبير ووهران تستولي على سواحل المغرب الأوسط، فكان أن وجهت أنظارها هذه المرة إلى الناحية الشرقية فاحتلت بجاية العاصمة الثانية للحفصيين في جانفي سنة 1510م؛ وباحتلال مدينة بجاية دق ناقوس الخطر في شمال إفريقيا، إذ توجه الإسبان بعدها إلى عنابة واحتلوها في نفس السنة (1510م) وتركوا بها حامية لحراستها، في الوقت الذي وقف فيه حكام بني حفص وبني زيان الذين قضى عليهم الشقاق عاجزين عن رد الخطر الإسباني الذي ينتقل من انتصار إلى انتصار أكبر منه، مما جعل بقية المدن من وسط وشرق وغرب البلاد (المغرب الأوسط) تستسلم للإسبان وتهادنهم على دفع الضريبة خوفاً من المصير المأسوي الذي لقته مدينتا وهران وبجاية من قبل كدلس شرشال، تنس، الجزائر، ومستغانم.

فقد وقع أعيان مدينة الجزائر مثلاً معاهدة استسلام تقدم بها "سالم التومي"[1] يوم 31 جانفي 1510م بصفته شيخ مجلس الأعيان إلى القائد الإسباني "بيدرو نافارو"

1- عبد الله شريط، محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، (ط1)، مطبعة البعث، قسنطينة: 1965م، ص 117.

المتواجد ببجاية فطلب منه الأخير دفع ضريبة باهضة مع إطلاق سراح كل الأسرى المسيحيين الذين في المدينة، وأن يذهب حاكم مدينة الجزائر "سالم التومي" رفقة "مولاي عبد الله" حاكم مدينة تنس لإعلان خضوعهما وطاعتهما لملك إسبانيا؛ وبالفعل فقد سافر الوفد إلى إسبانيا محمل بهدايا ثمينة وتفاوض مع مجلس مدينة سرقسطة Saragossa وافق خلاله أعضاء الوفد على تسليم أكبر جزرهم الصخرية للإسبان الذين أقاموا بها حصناً قوياً سمي **"حصن الصخرة"**[2]، ووضعوا به حامية متكونة من مائتي جندي فأصبحت مدينة الجزائر محاصرة لا يدخلها الداخل ولا يخرج منها الخارج إلا برضا الإسبان[3].

ذلك أن "فرديناند" الكاثوليكي في إستراتيجيته لاحتلال سواحل المغرب الأوسط كان يعمل على إقامة مراكز محصنة في أهم الموانئ مع نصب مدافع لمراقبة كل التحركات لوضع حد لنشاط الأساطيل المغربية التي كانت تُغير على السواحل والجزر الأيبيرية.

1- **سالم التومي:** من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من المعاقيل استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الأسبان بجاية عام 1510م، واستقر فيها عدة سنوات، ينظر، الحسن بن محمد الوزان الفاسي(ليون الأفريقي): وصف أفريقيا، (ط1)، تر، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت: (1983):(ج2)، ص 39.

2- سمى هذا الحصن الذي بني على جزيرة اسطفلة بقلعة البنيون nرَحِمَهُمُ ٱللَّهُPen نسبة إلى الصخور التي بني عليها، صممها المهندس المعماري مارتان دورو نتيريا تبعد عن مدينة الجزائر 300 متر وبنيت على شكل مثمن وحصنت بحصنين وكان يتواجد بها 200 جندي، ينظر، كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: (د،ت)، ص ص (21-22).

3- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط2)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، (ج1)، ص 325.

ونظراً لعدم قيام آل زيان بهجوم مضاد، احتل الجنويون[1] ميناء جيجل سنة 1513م، وبهذا وجد سكان الشواطئ الجزائرية أنفسهم تحت رحمة الإسبان والجنويين.

3- احتلال مرسى هنين 1531م.

بعد احتلال بجاية وعنابة احتل الإسبان مرسى هنين الساحلي بتلمسان يوم 8 سبتمبر 1531م بقوة أحد عشرة سفينة حربية وناقلتين للجنود إضافة إلى فرقة وهران التي ضمت مائتين وخمسين جندي، يقودهم القائد الإسباني "دون ألفارو دوبازان" (Don Alvaro de Bazan)، فخربوا المدينة التي كانت خالية من حاميتها، وكان هدفهم من احتلاله تطويق مدينة الجزائر غرباً وإخضاع ملك تلمسان "مولاي عبد الله" (محمد السابع) (1524-1542م) إلى سلطانهم. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يمكثوا فيها مدة طويلة حيث غادروها عام 1534م نتيجة لعدم وصول الدعم إليهم من إسبانيا.

وهكذا كان احتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأوسط الساحلية بداية النهاية لمملكة آل زيان التي ستزول نهائياً مع وصول العثمانيين إلى المغرب الأوسط.

ثالثاً:دخول العثمانيون إلى المغرب الأوسط وأطوار تحريرهم له (1512م - 1558م).

شهد المغرب الأوسط -كما رأينا- مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي (16م) مع بقية أجزاء المغرب الإسلامي غزوا صليبياً شنته إسبانيا على سواحله، تتبعا للأندلسيين الفارين بالآلاف من محاكم التفتيش إلى السواحل المغربية مما أدى إلى التدخل العثماني[2] في هذه المنطقة لمحاربة العدو المشترك والمتمثل في الإسبان.

1 - نسبة إلى مدينة جنوة الايطالية .

2 - برز دور الدولة العثمانية في حماية العالم الاسلامي والدفاع عنه والوقوف في وجه المد الغربي المسيحي بقيادة اسبانيا بعد تزعم الأخيرة للحركة الدينية القومية المضادة للوجود العربي الاسلامي

ففي هذه الأثناء عمل الأخوان بربروس[1] "عروج" و"خير الدين" على إنقاذ المسلمين المضطهدين من سواحل الأندلس إلى شمال إفريقيا حيث ظل "خير الدين" مدة في ناحية الأندلس من أجل ذلك فأسر وغنم، وكان يُسلم خُمس ما غنم إلى حاكم تونس الحفصي، ويوجه للسلطان العثماني "سليم الأول بن محمد" هدية عظيمة من نفائس الأموال، كان الأخير يتقبلها باستحسان والدعاء للأخوين، ويمولهما بمراكب مزودة برجال البحر المهرة[2]؛ لذا استنجد بهما أهل المغرب الأوسط لإنقاذه من الاحتلال الإسباني.

وهكذا فقد كانت الحروب الصليبية التي شنتها أوربا الغربية بقيادة إسبانيا ضد المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي والأندلس عموما مبرراً لتدخل آل عثمان متخذين من الجهاد طريقا للدفاع عن العقيدة الإسلامية، مما يدل على أن المعركة واحدة وهي "الدفاع عن الإسلام"[3] لذا استجاب السلطان "سليم الأول" لنداء أخوة الدين بإرسال المدد إليهم كرد فعل على التدخل الإسباني. ويبدو أن ظروف الدولة

في الاندلس والتيار الاسلامي عامة، ينظر: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط1)، دار الغرب الاسلامي، بيروت: (1996) ، (ج4)، ص 186.

1 – **بربروسة أو بربروشة**: كلمة تعني لحية شقراء، لقب بها خير الدين لأن لحيته كانت شقراء ويقول بعض المؤرخين الأوروبيين أن هذا اللقب هو تحريف لاسم بابا عروج أخ خير الدين، والحق أنه لقب لخير الدين إلا أنهُ أطلق على بابا عروج لما فيه من شبه من جهة النطق والصوت مع بابا عروج، ينظر، مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر: 1934.تعليق وإيضاح، ص 10؛ ويرجع أصل الأخوين **عروج وخير الدين** إلى جزيرة مدلي التي فتحها السلطان محمد الفاتح سنة 1457م وكان أبوهما "يعقوب" من بين الفاتحين تزوج ذمية (وقيل سيدة أندلسية) أنجبت لهُ أربعة بنين: إسحاق وعروج وخير الدين واليأس، قتل الأخير في إحدى رحلاته مع أخوهُ عروج من طرف جماعة جزيرة رودس، وأسر عروج إلا أنه تمكن من الهروب واتصل بقرقود أخ السلطان "سليم الأول" فأمدهُ بمركب فاتجه إلى الجهاد مع إخوته خير الدين وإسحاق لمحاربة النصارى في الغرب فمنحهُ سلطان تونس جزيرة جربة مقابل الخمس مما يغنمهُ فاتخذها قاعدة لإسطوله، ينظر، مؤلف مجهول: مصدر نفسه، ص ص (6–13).

2 – مؤلف مجهول:مصدر سابق، ص 24.

3 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق،(ج1)، ص 465.

العثمانية على عهد السلطان "سليم الأول" كانت مهيأة لقبول هذا التحالف بعدما غيرت من استراتيجيتها للفتح من أوربا – نظراً لتشبع الجبهة الأوروبية وظهور ممالك كبرى كفرنسا، والإمبراطورية المجرية النمساوية– إلى الشرق وغربي البحر الأبيض المتوسط للتصدي إلى غارات الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، مما أدى إلى نقل الحرب الصليبية من المشرق (الشام، ومصر) إلى المغرب الإسلامي الذي كانت دوله بحاجة ماسة إلى قوة تحميها من ذلك العدوان الذي تكررت غاراته، في ظل ضعف حكام هذا القطر من (بني حفص، بني زيان وبني مرين) الذين رمت بهم خلافاتهم العقيمة على العرش إلى الانكسار أمام الأعداء، وقد مر تحرير المغرب الأوسط عبر عدة أطوار يمكن تلخيصها كالتالي:

1- الطور الأول على عهد عروج (1512-1518م).

بحلول سنة 1510م ذاع صيت البحارين "عروج" و"خير الدين" في الشرق والغرب لإنقاذهما العديد من منكوبي الأندلس التي شهدت أكبر مأساة عرفها العالم آنذاك، لذا استنجد بهما سكان مدينة بجاية لتخليصهم من الاحتلال الإسباني فاتصل بهما علماء وأعيان المدينة وأمير قسنطينة "أبو بكر الحفصي" سنة 1512م، فسار "عروج" إلى المدينة مع فرقة من الجنود عددهم خمسين رجلاً[1] يضاف إليه أهلها من المجاهدين، إلا أن "عروج" فشل في اقتحام المدينة وفقد خلال محاصرتها ذراعه التي بترت، فعاد إلى حلق الوادي مركز قاعدته. وتكررت محاولاته في استرجاع المدينة ما بين 1514-1515م إلا انه فشل في ذلك أيضاً، لكنه في المقابل نجح وأخوه "خير الدين" في استرجاع مدينة جيجل سنة 1514م بعد أن طردا منها الجنويين بطلب من سكانها واتخذاها مركزاً لقواتهما وعين سكان جيجل "عروج" رئيساً عليهم.

وبعد فشل الأخوين "عروج" و"خير الدين" في استرجاع مدينة بجاية تبين لهما بأن مواجهة إسبانيا القوية لن يتم إلا بالاعتماد على الدولة العثمانية باعتبار أنها حامية الإسلام ورافعة لواء الجهاد، فبعثوا للسلطان "سليم الأول" عام 1514م بهدية

1 – مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 18.

ثمينة مما خلفه الجنويون بجيجل فزودهما السلطان بـ 14 سفينة، ومجموعة بحارة مهرة وكمية من الأسلحة والذخائر[1].

وفي سنة 1516م أرسل "سالم التومي" شيخ مدينة الجزائر وفداً إلى "عروج" الذي كان متواجداً بمدينة جيجل يطلب من الأخوين نجدتهم باسم سكان مدينة الجزائر فاستجاب لهم "عروج" لأنه رأى في أن المدينة تحظى بموقع إستراتيجي ما بين بجاية شرقاً ووهران غرباً الخاضعتين للنفوذ الإسباني، وأنه إذا تم الاستيلاء عليها يمكن اتخاذها كقاعدة مناسبة لتهديد الإسبان بدلاً من جيجل. فدخلها في نفس السنة (1516م) واستقبل استقبالاً حسناً وعينه سكانها سلطاناً عليهم وأميراً للجهاد، وبهذا وضعت أول لبنة لبناء الدولة الجزائرية الحديثة والموحدة[2].

والظاهر أن دخول الترك إلى الجزائر قد أثار ردود فعل محلية وأخرى إقليمية وثالثة دولية فقد تمرد "سالم التومي" ضد "عروج" بعد فشل الأخير في استرجاع حصن "البنيون" من الإسبان عام 1516م، إلا أن عروج استطاع أن يقضي عليه في سبتمبر 1516م. ومن جهتها جهزت إسبانيا حملة أشرف عليها الكاردينال "اكزمينيس"، وعين على قيادتها "دييغو ديفيرا" Diego devéra تكونت من 30 سفينة على متنها ألف جندي وألفين من البحارة حسبما جاء في الوثائق الإسبانية مزودين بمدافع وذخائر[3]. وانضم إليهم "يحي بن سالم التومي" المطالب بالثأر لمقتل أبيه مع المعارضين للتواجد التركي بمدينة الجزائر، إلا أن الحملة مُنيت بالفشل الذريع حيث تمكن "عروج" ومن معه من الترك والأهالي والمهاجرين الأندلسيين من سحق

---

1 - يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: (2007)، (ج2)، ص 12.

2 - عبد المجيد قدور: هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) نتائجها الحضارية خلال القرنين 16 و 17م/10-11هـ ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير مطبوعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، د، ت، ص 81.

3 - كورين شوفالييه: مرجع سابق ، ص ص (29 ، 33).

جيش "ديفيرا" فقتلوا منهم ثلاثة آلاف وأسرو ثمانمائة إسباني، وحُطم الأسطول الإسباني فوق صُخور باب الواد[1].

ونتيجة لهذا النصر دخل سكان البليدة ومليانة والمدية ودلس وبلاد القبائل، إضافة إلى عرب متيجة في طاعة "عروج" وبهذا توسع نفوذ "عروج" حتى شمل معظم وسط وشرق المغرب الأوسط.

ثم استولى الأخوان على (تنس) في جوان 1517م بعد قتل أميرها "حميد العبد" الذي كان مواليا للإسبان وقام "عروج" بتنظيم المناطق التي دانت له فقسمها إلى قسمين: قسم شرقي جعل عليه أخاه "خير الدين" الذي استولى على مدينة دلس واتخذها مقراً له، وقسم غربي مركزه مدينة الجزائر تحت حكم "عروج".

وخلال تواجد "عروج" في تنس لتنظيم أمورها قَدم إليه وفد من سكان تلمسان يطلبون مساعدته ضد ملكهم "أبي حمو الثالث"(1503م – 1518م) الذي رضي منذ سنة 1511م بالهيمنة الإسبانية وأن ينقذ أميرهم الشرعي "أبا زيان الثالث" ابن أخيه من السجن ويعيده إلى عرش تلمسان، فاتجه "عروج" إلى تلمسان وخلف أخاه "خير الدين" على مدينة الجزائر، فدخلها في عام 1517م بعدما هزم قوات "أبي حمو الثالث" التي بلغت ثلاثة آلاف راجل وستة آلاف فارس[2] عند «سهل اربال»، بينما فر "أبو حمو الثالث" إلى فاس ثم إلى وهران مستنجدا بالإسبان كعادته، وأعاد "عروج" "أبى زيان الثالث المسعود" على عرش تلمسان، إلا أن "أبا زيان" هذا سرعان ما انقلب على "عروج" محاولاً طرده من المغرب الأوسط، إلا أن الأخير قتله مع سبعين من أسرة بني زيان وتسلم السلطة هو بنفسه[3]، كما تخلص من القادة المتآمرين ضده.

---

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 183.

2 – بسـام العسلي: مرجع سابق، ص 102.

3– محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، (ط2)، مكتبة دار الشرق، بيروت: (1979)، ص26.

إلا أن "أبا حمو الثالث" وبدعم من الإسبان تمكن من قتل "عروج" عام 1518م بين الوادي المالح وزاوية سيدي موسى[1] وقطعوا رأسه وطافوا بها أنحاء إسبانيا وأوربا، وأعاد الإسبان "أبا حمو موسى الثالث" إلى عرش تلمسان من جديد. وعلى الرغم من أن موت "عروج" شكل خسارة بالنسبة للجزائريين ورجاله، إلا أنه استطاع كما قال المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان": «أن يبوِّئَ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدولة العظمى»[2].

2- الطور الثاني على عهد خير الدين بربروس (1534م-1519م).

بعد مقتل "عروج" طلب أعيان مدينة الجزائر من أخيه "خير الدين" أن يقود إدارة الجهاد بالمدينة إلا أنه اعتذر لهم وأمرهم أن يختاروا بين الاثنين ليكون أحدهما رئيسا عليهم وهما: "أحمد بن القاضي"[3] حاكم كوكو الذي عينه على الناحية الشرقية و"محمد بن علي" الذي عينه على الناحية الغربية، غير أن أعيان مدينة الجزائر ألحوا عليه في البقاء قائلين: «أن الله قد نصرنا بك على العدو... فأنت بيننا وبينهم [أي الإسبان] سداً لا يخلصون إلينا مادمت في هذه البلاد»[4]، عندها عرض عليهم "خير الدين" أن يدخلوا في طاعة السلطان "سليم الأول" سلطان الدولة العثمانية ليزودهم بالمال والرجال ووسائل الجهاد لأنه في غير مقدوره ولا طاقته أن يقف في وجه إسبانيا لوحده في ظل محدودية إمكاناته وفي مغرب مجزئٍ ومقسم، وهذا بالدعاء له على المنابر وضرب السكة باسمه، فاستصوبوا رأيه وانقادوا له نظراً لوجود رابطة الدين

---

1 - يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، (ج2)، ص 15.

2 - شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالي، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، تعر، محمد مزالي، البشير بن سلامة، (ط2)، الدار التونسية للنشر، تونس: (1978)، (ج2)، ص 328.

3 - **أحمد بن القاضي**: من أعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية بلاد القبائل عمل قاضياً ببجاية في سنة 917هـ/1511م أسس إمارته بجبل كوكو (الواقع عند منابع وادي سبأ وبالسفوح الشرقية لجبال جرجرة تبعد 8 كلم شرقي عين الحمام، سوق الأربعاء من بلاد الزواوة)، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت: 1980م،(ج3)، ص 48.

4 - مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 41.

والخلافة بينهم وبين حكومة آل عثمان من جهة، وخوفهم من مفاجآت الإسبان من جهة أخرى[1]، فأرسلوا إلى السلطان "سليم الأول" كتاباً يشرحون له فيه الأحداث التي شهدها المغرب الأوسط من احتلال الإسبان لأهم موانئه الساحلية مع ذكرهم للبيعة فأصدر الأخير فرماناً – أمر سلطاني- يُعلن فيه موافقته على أن تصبح مدينة الجزائر تحت رعايته وحمايته، وعين "خير الدين" بايلرباي[2] على دولة الجزائر يوم 15 ماي 1519م، وأذن لدولة الجزائر أن تضرب السكة باسمها، مما يدل على استقلالها داخل إطار الإمبراطورية العثمانية، وأرسل إلى "خير الدين" ألفين جندي من الإنكشارية[3] وأربعة آلاف متطوع[4] إضافة إلى تجهيزات عسكرية من أسلحة وعتاد بحري.

وهكذا دخلت الجزائر تحت لواء الحكم العثماني، وهو ما أدى إلى قلق جيرانها من بني حفص في تونس وبني مرين في المغرب الأقصى خوفاً من وصول المد التركي إلى دولتيهما والقضاء على ملكيهما، كما أدى هذا الحدث (إلحاق الجزائر بالباب العالي بإستانبول) إلى حدوث اضطراب في بلاط بني زيان بتلمسان، كما تمرد "أحمد بن القاضي" على "خير الدين" بتحريض من الأمير الحفصي "أبي عبد الله محمد بن الحسن"(1494م-1526م) ، حيث شعر "ابن القاضي" بإفلات السلطة من يده، لذا سعى إلى الاستقلال بمملكته في كوكو ببلاد القبائل، كما لقي هذا الحدث ردة فعل

---

1 – عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 46.

2 – **باي لرباي**: تعني أمير الأمراء باعتباره أن خير الدين الرئيس الأعلى لكل البايات الذين سوف يتولون الحكم في بلاد شمال إفريقيا، ينظر، أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 198.

3 – **الانكشارية**: بالتركية يكيجري بمعنى الجند الجديد وهي فرقة مشاة كونها أورخان تحت رعاية الحاج بكتاش، وهم المسيحيون الذين خضعوا لنظام الدوشرمة (هي كلمة يونانية تعني جمع الغلمان الأسر بين 10-15 سنة وضمهم إلى الإنكشارية، ينظر، محفوظ رموم: الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830)، دراسة تاريخية أنثربولوجية، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2002/03/12م.ص ص (53-54).

4 – حنيفي هلايلي: "الحياة الاجتماعية للجيش الإنكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني"، الحوار الفكري، (ع6)، جامعة قسنطينة، سبتمبر 2004، ص ص (136-137).

عنيفة من طرف الإسبان الذين ما كانوا ليرضوا أبداً بقيام دولة جزائرية موالية لآل عثمان أعدائهم، وعلى ساحل الشمال الإفريقي الذي اعتبروه امتداداً للبحر الروماني.

لذا قام ملكهم "شارلكان"[1]، بإرسال حملة جديدة للقضاء على دولة الجزائر التركية ضمت 40 سفينة على متنها خمسة آلاف مقاتل (إسبانيين وأوربيين) يقودها نائب ملك صقلية "هوكو دومنكاد" Hugo de Moncade" . أبحرت الحملة من جزيرة صقلية في أواخر جويلية سنة 1519م، وأرست بناحية الحراش يوم 17 أوت[2]. إلا أنها منيت بالفشل كسابقتها حيث استطاع "خير الدين" ورجاله أن يلحقوا بالأسطول الإسباني خسائر فادحة على الرغم من قلة عددهم (خمسمائة مجاهد)[3].

وبعد هذا الانتصار وضع "خير الدين" نصب عينيه ضم مملكة تلمسان بعدما ضم مستغانم للدولة الجزائرية عام 1519م وفعلاً تمكن من دخول تلمسان وأعاد "أبو محمد عبد الله الثاني" على حكمها، شرط أن تكون السكة والخطبة للسلطان "سليم الأول".

هذا في الوقت الذي سيطر فيه "ابن القاضي" على مدينة الجزائر لمدة 5 سنوات (1520م-1525م)[4] بعد تحالفه مع السلطان الحفصي "أبو عبد الله محمد بن الحسن" (1494م-1526م) مما اضطر "خير الدين" أن ينسحب إلى قاعدته القديمة بجيجل أين عمل على ضم المناطق الشرقية إلى الدولة الجزائرية، فاستولى على القل سنة 1521م، وأخضع مدينتي عنابة وقسنطينة في العام الموالي (1522م).

1 - **شارلكان أو شارل الخامس:** (1500-1558م) أمير بورغني أباه فليب لوبو (الجميل) وأمهُ جان المجنونة، عندما توفي جده مكسيمليان هابسبورغ (1459-1519) عين إمبراطوراً للرومانية المقدسة، التي ضمت (إسبانيا، النمسا، بلجيكا، هولندا، صقلية، سردينيا، ونابولي وقسماً من بلاد الجرمان وأغلب البلاد الأمريكية، فأصبح باسم إمبراطوريته العظمى يقف وجهاً لوجه أمام فرنسا والإمبراطورية العثمانية، ينظر، بسام العسلي: مرجع سابق، ص 49.

2 - أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (205-206).

3 - عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 45.

4 - شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 329.

وبعدما تمكن "خير الدين" من القضاء على ثورة "ابن القاضي" سنة 1525م الذي قُتل على يد أتباعه[1] ضم إليه إقليم متيحة في نفس السنة ثم قمع ثورات شرشال أين تواجد الثائر "قارة حسن"[2] فقتله وأخضع إليه قسنطينة للمرة الثانية سنة 1526م[3] كما خَضع له أمير بني زيان "أبو محمد عبد الله الثاني" الذي عمل على إثارة "يحي بن القاضي" ليطالب بثأر أبيه المقتول "أحمد بن القاضي"، فقاتله "خير الدين"، وبعد وساطة كبار قومه أعاده إلى عرش تلمسان مقابل دفع ستين ألف دينار إلى خزينة الدولة الجزائرية ومضاعفة الخراج[4].

وبعد أن استتب الأمر "لخير الدين" بعد قضائه على تلك الثورات والتمردات التي قامت ضده، عمل على تنظيم الدولة الجزائرية وشكل جيشاً مجهزاً تجهيزاً بحرياً استعداداً لاسترجاع **حصن البنيون** الذي بناه الإسبان منذ سنة 1510م، حيث شكل هذا الحصن أكبر مشكلة لخير الدين" فكان من المستحيل عليه استعمال سفنه في هذا المرسى، وبالتالي كان مضطرا أن يرسوَ في مكان آخر بعيد عن مدينة الجزائر فاسترجعه يوم 27 ماي 1529[5] بعد محاصرته.

ولما سمع "شارلكان" خبر سقوط الحصن عزم على الانتقام بالقضاء على إيالة الجزائر العثمانية فجهز من أجل ذلك حملة جعل عليها الأميرال "أندريا دوريا" الجنوي عام 1531م ضمت 40 سفينة. على متنها ألف وخمسمائة مقاتل، كان هدفها الأول هو

---

1 – محمد خير فارس: مرجع سابق، ص 32.

2 – **قارة حسن:** هو أحد ضباط خير الدين المنشقين عليه خلال ثورة ابن القاضي، وقارة كلمة تركية معناها الأسود، ينظر، مؤلف مجهول: مصدر سابق، تعليق وإيضاح، ص 12.

3 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، (ج1)، ص 164، وقيل سنة 1529، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، (ج3)، ص 49.

4 – مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 66.

5 – تمكن خير الدين من استرجاع الحصن بعدما استعمل حيلته الحربية حيث أنطلق بأسطوله موهماً بأنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو، إلا أن هذه السفن سرعان ما عادت أدراجها في وسط الليل واختبأت في مرفأ تامنتفوس وأحاطت بالحصن، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (215-216).

مدينة شرشال التي كانت تستقبل المهاجرين الأندلسيين، ومن بعدها مدينة الجزائر للقضاء على دولة الجزائر الفتية وإنهاء سلطة الأتراك منها وجعل المغرب الإسلامي تحت الحكم الكاثوليكي، إلا أنها انكسرت إذ تمكن جيش "خير الدين" من تطويق جيش "دوريا" الذي اقتحم المدينة فأسر منهم ستمائة جندي[1]، ورجع "دوريا" خائباً.

وبهذه الانتصارات تمكن "خير الدين" من توسيع حدود الإيالة الجزائرية بضمه لعدة مناطق في شرق وغرب ووسط البلاد للحكومة الجزائرية التي كان مقرها مدينة الجزائر، مما جعل السلطان العثماني "سليمان القانوني" يستدعيه إلى إستانبول في سنة 1533م ليباشر عمله كقبطان باشا (قائد عام للبحرية التركية)[2].

وما يمكن استخلاصه في هذه النقطة أن "خير الدين" استطاع أن يمد حدود الدولة الجزائرية قبل رحيله إلى استانبول فوصلت شرقاً إلى قسنطينة وعنابة، وغرباً إلى إمارة بني زيان بتلمسان إذا استثنينا مدينتي بجاية ووهران اللتين ظلتا خاضعتين للنفوذ الإسباني، واستطاع بفضل حنكته السياسية أن يمنع القادة أصحاب المصالح السياسية من الاستقلال بأجزاء من هذه الدولة الفتية مثل: "احمد ابن القاضي"، الذي حاول الاستقلال بالناحية الشرقية، وبتحريره لحصن البنيون عام 1529م أكسب مدينة الجزائر شهرة كبيرة لا على المستوى الإقليمي فقط وإنما على مستوى العالم المعروف آنذاك بقاراته الأربع (أوربا، آسيا، إفريقيا، أمريكا) ليواصل خلفاؤه من بعده مهمة توسيع حدود الدولة الجزائرية وإخضاع ما تبقى منها إلى السلطة الحاكمة بمدينة الجزائر.

3- الطور الثالث على عهد خلفاء خير الدين باشا(1535م-1558م).

بعد رحيل "خير الدين" إلى استانبول عام 1535م خلفه على الجزائر "محمد حسن آغا"السرديني الذي عمل على تحصين المدينة فأنشأ واحدا وثلاثين غليوطة

---

1 - مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص ص (70، 72).

2 - أخلع السلطان سليمان القانوني على خير الدين لقب قبو دان باشا يوم 15 أكتوبر 1535م مع احتفاظه بمنصبه كبايلرباي للجزائر حتى وافته المنية بإستانبول يوم 24 جويلية 1546م واستخلف حسن آغا على الجزائر، ينظر، عبد المجيد قدور: مرجع سابق، ص 88.

(سفينة) كما عمل على توطيد النظام في الجزائر وداخل صفوف الجيش، وفي عهده شن "شارلكان" حملة كبيرة على مدينة الجزائر عام 1541م لاحتلالها وطرد الأتراك منها تألفت من خمسة وستين سفينة حربية وأربعمائة وخمسين سفينة نقل على متنها أربعة وعشرون ألف جندي (من جنسيات أوروبية مختلفة) واثنا عشر ألف بحار[1].

فشارلكان" كان يرى في وجود سلطة للأتراك العثمانيين أعدائه في بلاد المغرب خطراً يهدد مستقبل إسبانيا التي من المحتمل أن يفتحها المسلمون من جديد إن لم يقم بعمل مضاد، إلا أن "حسن آغا" تمكن من إلحاق الهزيمة بقوات "شارلكان" ساعده في ذلك الظروف الطبيعية إذ هبت عاصفة قوية على ساحل مدينة الجزائر فخسر "شارلكان" 200 سفينة و200 مدفع وكل الأسلحة والذخيرة وخلف وراءه اثنا عشر ألف قتيل[2]. فكانت أكبر هزيمة شهدها العالم المسيحي خلال القرن السادس عشر الميلادي (16م) وضربة حاسمة هزت التواجد الإسباني في غربي البحر المتوسط خاصة في الجزائر، كما خلفت آثار عميقة لا على الملك "شارلكان" وحده وإنما على إمبراطوريته، ودول أوربا المسيحية عامة، فقد تبددت أحلامه وضاعت آماله في القضاء على دولة الجزائر التي أصبحت بعد هذا الانتصار قوة دولية فاعلة في أحداث البحر الأبيض المتوسط والعالم الغربي ككل.

وبعد هذا الانتصار توجه "حسن آغا" على رأس حملة كبيرة في أفريل عام 1542م لإخضاع "ابن القاضي" (أخ أحمد ابن القاضي) حاكم كوكو الذي تحالف مع الإسبان، فخضع إليه الأخير؛ ولتوسيع نفوذه سير "حسن آغا" حملة إلى إقليم الزيبان فخضع سكان بسكرة لسلطته ومنح "لعلي بوعكاز" قائد العشائر العربية الدواودة الذين كانوا يسيطرون على المنطقة قفطان التولية على البدو تحت اسم شيخ العرب[3]، وبعدها توجه إلى تلمسان عاصمة بني زيان التي كان يحكمها "محمد السابع"

---

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (281–282).

2 – أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص 296.

3 – صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514–1830)، دار هومة، الجزائر: 2005م، ص 69.

(1524م-1542م) الذي خضع له إثر حملة "شارلكان" على مدينة الجزائر عام 1541م، وسلم له قلعة المشور[1]، إلا أن تدخل الإسبان في شؤون هذه المملكة التي اعتبروها دائما بؤرة التوتر في المغرب الأوسط والبوابة للسيطرة عليه، أدى إلى استسلام حاكمها لهم حيث دعموا "محمد السابع" ضد أخيه "أبي زيان أحمد الثالث" (1542م- 1544م) الذي استنصر بالأتراك في الجزائر، وتمكن من العودة إلى العرش بتأييد "حسن آغا" سنة 1542م في حين فر "محمد السابع" إلى وهران مستنجداً بالإسبان فأمده حاكم وهران "الكونت دالكوديت" بجيش مكون من اثني عشر ألف من المشاة وألفين فارس[2] فدخل مع أخيه "أبا زيان أحمد الثالث" في معركة عند شُعبة اللحم قرب عين تموشنت في جانفي 1543م استطاع فيها "محمد السابع "وبدعم من الإسبان أن يلحق الهزيمة بقوات أخيه "أبي زيان أحمد الثالث" عند "سهل أنكاد"[3] وعاد إلى عرش تلمسان إلا أن أخاه "أبو زيان أحمد" تمكن بدعم من "حسن آغا" العودة إلى عرش تلمسان من جديد ما بين سنتي (1544م -1550م) بينما أُعدم "محمد السابع" من طرف سكان أنكاد الذين احتمى بهم.

وبمجيء "حسن باشا"[4] بن "خير الدين" (1544م-1552م) على رأس الجزائر بعد وفاة "حسن آغا" وجه كافة جهوده إلى الناحية الغربية (أي تلمسان)، التي دخل ملكها "أبو زيان أحمد الثالث" في خدمة الإسبان، حيث أدراك "حسن باشا" بأن بقاء

---

1 - **قلعة المشور**: تتوسط تلمسان أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة في القرن 12م وبداخلها دوراً للسكنى ومسجد جامع جميل، ينظر، يحي بوعزيز: <u>مدن تاريخية، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط</u>، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر: 1985م ، ص 37.

2 - صالح عبـاد: مرجع سابق، ص 70.

3 - تقع **أنكاد** في الجنوب الغربي من مدينة وجدة المغربية على نحو 30 كيلومتر، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص 313.

4 - **حسن باشا**: هو الابن الوحيد لخير الدين من امرأة جزائرية أي كرغلي، عين بادئ الأمر كنائب لوالده في الجزائر عام 1544م ثم رقي إلى منصب بكلربك (بايلر باي) بعد وفاة والده عام 1546م وكلف بين عامي (1546-1567م) ثلاث مرات بهذا المنصب، ينظر، محمد خير فارس: مرجع سابق، ص ص (38-39).

الأسرة الزيانية ووجود الإسبان في وهران يعيقان حل مشكلة تلمسان، فقد كثرت الصراعات بين أبناء آل زيان الحكام، معتمدين في نزاعاتهم على القوتين المسيطرتين على القطر الجزائري الأتراك في الجزائر والإسبان في وهران.

فتحرك إليه في سنة 1546م إلا أن وصول نبأ وفاة أبيه "خير الدين" اضطره أن يعود إلى مدينة الجزائر حفاظاً على الوضع وحتى لا يخرج سكان الجزائر عن طاعته بعد سماعهم لخبر وفاة قائد الجهاد "خير الدين" باشا؛ ومن جهته استغل "دالكوديت" هذه الفرصة فحاصر مستغانم وأعان السعديين (محمد الشيخ السعدي) - الذي لم يرضى بوجود حكومة قوية في المغرب الأوسط - على احتلال تلمسان يوم 5 جوان 1550م مستغلاً خُلُوَّها من حاميتها التي شاركت في الدفاع عن مدينة مستغانم المحاصرة، ونزعوا "أبا زيان أحمد" عن عرش تلمسان ونَصب "محمد الشيخ السعدي" ابنه "عبد الله " على عرش تلمسان. وهنا تظهر لنا جبهة جديدة للقتال واجهت الأتراك في الجزائر وهم السعديون حكام المغرب الأقصى.

إلا أن "حسن باشا" استطاع أن يُلحِق الهزيمة بالسعديين في حوض الشلف سنة 1552م بفضل شجاعة القائد "حسن قورصو"[1]، وبعد هذه الأعمال التي قام بها "حسن باشا" استدعاه السلطان "سليمان القانوني" إلى القسطنطينية فَخَلَفَهُ على إيالة الجزائر "صالح رايس"[2] (1552م-1556م) الذي نجح في توسيع سلطة العثمانيين داخل البلاد الجزائرية.

فبعد وصوله إلى الجزائر اتجه نحو الجنوب في اكتوبر 1552م أين يتواجد الثائرون من بني جلاب ببسكرة وتقرت، وبني وارجلان (ورقلة) الذين امتنعوا عن أداء الضريبة لخزينة الدولة بعد خضوعهم للأتراك عقب حملة "حسن آغا" على بسكرة

---

1 - **حسن كورصو:** هو علج من كورسيكا ومملوك لصالح رايس، ينظر، صالح عباد: مرجع سابق، ص 81.

2 - ولد **صالح رايس** بالإسكندرية وكان يعمل إلى جانب خير الدين وتحمل قيادة الأسطول العثماني وعرف بالشدة والإقدام، ينظر، شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 343.

والزيبان. وتمكن من إخضاعهم وأجبر حاكميْ توقرت وورقلة على دفع الجبايات[1] وضم المدينتين إلى الدولة الجزائرية وكان هذا بمساعدة أمير قلعة بني عباس "عبد العزيز" وشيخ العرب "بوعكاز"، كما أخضع (وادي سوف) ثم عاد إلى الجزائر أين واجه تمرد "عبد العزيز" أمير بني عباس الذي حاول الاستقلال بملكه، وطلب من "صالح رايس" أن يخضع له المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة وأمام رفض "رايس" لهذا الطلب قام "عبد العزيز" بمحاصرة الحاميات التركية في زمورة والبرج والمسيلة والبويرة[2]، ودخل في معارك مع البايلرباي "صالح رايس" قُتل فيها "الفضل" أخ "عبد العزيز".

إلا أن "صالح رايس" جعل جبهة "عبد العزيز" ساكنة بالنسبة له واتجه إلى الغزو فهاجم جزيرة ميورقة فغنم خمسة سفن برتغالية كان على متنها الأمير الوطاسي "أبو حسون"[3] الذي أعانه "صالح رايس" عسكرياً ضد خصمه "محمد الشيخ" السعدي فتمكن من إلحاق الهزيمة "بمحمد الشيخ" السعدي في "تازة" يوم 7ديسمبر 1553م[4]، وفي طريق عودته من فاس دخل "رايس" تلمسان وعزل "مولاي الحسن بن عبد الله الثاني" الزياني من عرشها عام 1554م لتعاونه مع الإسبان وتآمره ضد الأتراك وألحق المملكة الزيانية بالسلطة التركية بالجزائر العاصمة رأساً.

1 – أستسلم ملك توقرت أحمد بن سليمان بن عمر بعد 3 أيام من محاصرة المدينة وقدرت الجباية عليه بما قيمته 2000 قطعة ذهبية مع عدد من رقيق السودان و30 عبداً من رقيق السودان سنوياً على حاكم ورقلة، ينظر، ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2000م، ص ص (105، 526).

2 – محمد بن الصالح العنتري: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، (ط2)، دار هومة، الجزائر: 2007، ص 40.

3 – كان **أبو حسون الوطاسي** قد وقع أسيراً في يد الجزائريين عندما استولى صالح رايس في إحدى غاراته على جزر البليار على 6 سفن برتغالية كان أبي حسون على متنها عندما توجه إلى شارلكان وملك البرتغال عام 1553 يطلب مساعدته ضد خصمه محمد الشيخ السعدي الذي طردهُ من عاصمته فاس (عاصمة الوطاسيين)، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (340-341).

4 – شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 343.

وبهذا وضع حدا لهذه الإمارة المنهارة كما وضع حداً للتدخل الإسباني في شؤونها – ومن جهة الإنصاف – كان لابد لها من هذه النهاية فأمراء بني زيان فضلوا مصالحهم الشخصية على مصالح العامة، فلو نبذوا خلافاتهم ووضعوها جانبا لأمكن توحيد المقاومة مع العثمانيين ضد الإسبان، ولتطهر المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني منذ القرن السادس عشر (16م).

ومن جهتهم تمكن أتراك عنابة وتونس من إخضاع قسنطينة في عام 1555م[1]؛ ثم توجه "صالح رايس" على رأس جيش كبير مكون من اثنين وعشرين سفينة وأربعة سفن بحرية وثلاثين ألف مقاتل، وانضم إليه رجال القبائل من إمارة كوكو، وأمير بني عباس "عبد العزيز" – الذي دخل في صلح معه – نحو مدينة بجاية في جوان 1555م ليخلصها من يد الإسبان الذين احتلوها منذ سنة 1510م فتمكن منها بعد محاصرتها.

وبتحرير بجاية زال الخطر الإسباني من السواحل الشرقية للجزائر إذا كانت آخر ما تبقى بأيديهم في هذه الناحية، كما أن تحريرها وضع حداً لحلم الإسبان في ضم المغرب الأوسط إلى الإمبراطورية الإسبانية، فلم يبقى في حوزتهم سوى وهران ومستغانم في الناحية الغربية.

وبعد هذا الانتصار الذي حققه "صالح رايس" ببجاية عزم على استرجاع وهران المحتلة منذ سنة 1509م كنقطة انطلاق لاسترجاع الأندلس من جديد، وهذا بعدما

---

1 – يعتبر هذا التاريخ هو التاريخ الرسمي لإلحاق قسنطينة بالحكم العثماني بالجزائر بعد محاولتين سابقتين، ودليل ذلك هو الرسالة التي وجهها سكانها إلى السلطان "سليمان القانوني" في شأن "صالح رايس" عام 1555م التي توضح رغبة القسنطينيين في الانضواء تحت راية الدولة العثمانية لكونها أهلاً لحماية الإسلام والمسلمين وهي تشبه رسالة أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول كما تعرف بفضل صالح رايس للإطلاع عليها، ينظر، ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص ص (111،113).

حصل على موافقة السلطان العثماني "سليمان" الذي رأى ضرورة فتح وهران قبل أن تسفر المفاوضات بين الإسبان و"محمد الشيخ" السعدي عن نتيجة عملية[1].

فأمده السلطان في سنة 1956م بـ أربعين سفينة على متنها ستة آلاف جندي عثماني بينما بلغت قوات "رايس" ثلاثين سفينة حربية وأربعة آلاف جندي، إضافة إلى عشرة آلاف من السكان الأصليين[2] (الجزائريين)، وسار جيشه براً إلى وهران بينما سار هو بحراً.

في حين وصل الجيش العثماني إلى بجاية في جوان من نفس السنة، إلا أن "رايس" توفي قبل أن يحقق مشروعه في فتح مدينة وهران والمرسى الكبير، نتيجة إصابته بمرض الطاعون الذي عم مدينة الجزائر آنذاك[3] فخلفه على قيادة الجيش "حسن قورصو" بمواقفه الإنكشارية، فشدد الحصار على مدينة وهران براً وبحراً ثم دخل في مناوشات مع القوات الإسبانية، وكاد أن يستولى على المدينة لولا صدور القرار السلطاني – الذي لم يكن في صالح الجزائريين – باستقدام السفن الجزائرية لتعزيز قوات المجاهدين العثمانيين ببحر الأرخبيل لرد حملـة "أندريا دوريا" على البسفور مما جعل "حسن قورصو" يفك الحصار عن وهران[4] وهو ما حال دون استرجاعها.

وبعد تمرد الانكشارية[5] عقب وفاة "صالح رايس" أعاد السلطان "سليمان القانوني" "حسن باشا" بن خير الدين على حكم الجزائر للمرة الثانية في جوان

---

1 – أجريت هذه المفاوضات سنة 1555م بهدف القضاء على دولة الجزائر تحت إشراف حاكم وهران "الكونت دالكوديت"، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 366.

2 – صالح عبـاد: مرجع السابق، ص 80.

3 – ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 108.

4 – عبد القادر فكاير: العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية: مرجع سابق، ص 26.

5 – تسببت وفاة صالح رايس (جوان 1556م) في نشوب الصراع بين الوجق (الإنكشارية) وطائفة رياس البحر فقد عين الإنكشارية حسن قورصو ومنعوا البايلرباي "محمد تشلبي طكلرل"ي الذي عينته القسطنطينية دخول مدينة الجزائر، إلا أن مؤامرة الرؤساء سمحت لتاكلرلي بدخول المدينة وقتل حسن قورصو، وردّ الإنكشارية باغتيال محمد تشلبي طكلرلي ونصبوا يوسف صديق قورصوا

1557م، نظراً لكونه أدرى بأحوال أهل الجزائر بحكم فترة حكمه الأولى وللمكانة التي حظي بها لدى القبائل الجزائرية لكون أمه جزائرية.

فحاول "حسن باشا" مواصلة الهجوم على وهران غير أن تحالف الإسبان "الكونت دالكوديت" مع السعديين جعلهم يشنون هجوماً على مستغانم يوم 22 أوت1558م، ومن قبلها استولى الإسبان على مزغران، إلا أن رجال "حسن باشا" تمكنوا من استرجاع مزغران يوم 26 أوت 1558م وقتل معظم الجيش الإسباني وأسر الباقون، ونظم الشعراء في فتح مزغران القصائد الطوال فكانت هذه الواقعة أكبر كارثة حلت بالجيش الإسباني في الغرب الجزائري، فقد قتل فيها "الكونت دالكوديت" نفسه[1] وفقد الإسبان هيبتهم في هذه الناحية، وانحصر تواجدهم في مدينة وهران والمرسى الكبير.

وبعد هذا الانتصار توجه "حسن باشا" إلى الشرق أين يتواجد "عبد العزيز" أمير بني عباس الذي وسع من نفوذه هناك؛ وبدعم من صهره "ابن القاضي" أمير كوكو – الذي تزوج من ابنته – استولى "حسن باشا" على مدينة المسيلة سنة 1559م وبعض الحصون إلا أن "عبد العزيز" سرعان ما استرجعها، وبعد مقتله صالح أخاهُ "أحمد أمقران"[2] "حسن باشا" في نفس السنة (1559م) ثم وجه "حسن باشا" أنظاره إلى مدينة وهران ليسترجعها من يد الإسبان فأعد من أجل ذلك عشرة آلاف من رجال القبائل وفرقة من العلوج مما أدى إلى تمرد الانكشارية ضده بسبب تجنيده لرجال القبائل، فَأُرْسِلَ إلى استانبول، إلا أن السلطان "سليمان" أعاده من جديد في أوت 1562م على رأس الجزائر، فجهز حملة أخرى سنة 1563م متكونة من خمسة عشر ألف مقاتل من رماة البنادق، وألف فارس صبايحي بقيادة "أحمد أمقران الزواوي"

الذي توفي بالطاعون ثم جاء يحي باشا في ماي 1557م إلى أن جاء حسن باشا للمرة الثانية على رأس الجزائر، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 90.

1 – بلغ عدد القتلى والأسرى الأسبان 12 ألف، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (377-376).

2 – **أمقران** هذا هو جد الأسرة المقرانية التي ينسب إليها محمد المقراني زعيم ثورة 1871، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 92.

واثني عشر ألف من رجال زواوة وبني عباس[1] لغرض استرجاع مدينة وهران ففرض عليها حصاراً في أفريل 1563م، إلا أنه فشل في اقتحامها نظراً لوصول المدد إلى "الدون مارتان" حاكم وهران من إسبانيا (25 سفينة) مما أضطر "حسن باشا" إلى رفع الحصار الذي دام شهرين[2].

وبهذا بقيت وهران بيد الإسبان إلى أن انتزعها منهم "أوزن حسن" صهر الداي "محمد بكداش" بمساعدة باي الغرب "مصطفى بوشلاغم" يوم الجمعة 26 شوال 1119هـ/20 جانفي 1708م[3] واتخذها الباي "بوشلاغم" مقراً لحكمه، ونظم الشعراء قصائد طوال يمدحون فيها الداي "محمد بكداش"، ثم تحررت وهران نهائيا من الاحتلال الإسباني عام 1792م.

خاتمة:

ومما سبق خلصنا إلى الاستنتاجات الآتية:

أولاً: تعددت دوافع التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط الذي اعتبرته إسبانيا بوابتها لاحتلال شمال القارة الإفريقية نظراً لاعتبارات دينية متمثلة في العداوة التقليدية بين الإسلام والمسيحية، وملاحقة مسلمي الأندلس الفارين إلى السواحل المغربية عقب سقوط غرناطة 1492م، والدافع الاقتصادي الذي تمثل في رغبة إسبانيا في البحث عن أسواق لتوسيع مجال نشاط تجارتها، إضافة إلى الدافع

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 379.

2 – Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger, (1518-1830) Tom II, (Face à l'Europe), Alger: Biliothèque Nationale d'Algeie, 1996,P19.

3 – محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقد، وتح، محمد بن عبد الكريم، (ط2)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، ص 30، إلا أن الأسبان احتلوا وهران ومرساها من جديد في جويلية 1732م إلى أن تمكن الباي محمد الكبير باي معسكر من استرجاعها نهائياً يوم الاثنين 05 رجب 1206هـ/29 فيفري 1792م وهو التاريخ الذي غادر فيه حاكم وهران الدون "جون كورتين" المرسى الكبير على عهد الداي الخرناجي حسن، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص ص (268-269).

السياسي الذي يعتبر محركاً قوياً لمحاولة التوسع الاستعماري خاصة بعد توحد إسبانيا المسيحية.

ثانياً: أن الاحتلال الإسباني للمغرب الأوسط اقتصر في الغالب على المناطق الساحلية الاستراتيجية الهامة كوهران والمرسى الكبير، حيث أقاموا فيها حاميات ومراكز محصنة لصد أي عدوان مضاد محتمل من طرف السكان الأصليين، وهو ما يدل على أنهم تحاشوا المدن الداخلية خوفاً من الاصطدام مع السكان الأصليين، أو لأنهم كانوا يحاربون على جبهات أهم بالنسبة إليهم من شمال أفريقيا كبلاد إيطاليا التي سعت إسبانيا إلى ضمها، أو يرجع للمعاناة التي عاشتها المعسكرات الإسبانية على السواحل المحتلة من نقص العتاد والمؤن الذي كان يأتيها غالباً من البحر لبعدها عن الأرض الإفريقية.

ثالثا: بفضل جهاد الإخوة بربروس "عروج" و"خير الدين"، وخلفائهم من بعدهم ومن ناصرهم من سكان البلاد الجزائرية والأندلسيين استرجعت الجزائر كل المراكز الساحلية التي كانت بيد الإسبان، فكان استرجاع مدينة جيجل سنة 1514م بداية النهاية للتواجد الإسباني في المغرب الأوسط، وهو ما تحقق بعد استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير عام 1792م، لتنتهي الحرب الصليبية التي دامت ثلاثمائة سنة ما بين الإسبان والجزائريين (1492م-1792م)، وتم توسيع رقعة البلاد الجزائرية إلى أن وصلت حدودها الصحراء (ورقلة وتوقرت) على عهد البايلرباي "صالح رايس" فاكتسبت الجزائر بذلك مكانة خاصة وهيبة بين الدول آنذاك حتى أصبحت تُعرف ب"دار الجهاد" و " قلعة الإسلام " الصامدة في وجه القوة المسيحية حسب وصف كُتاب ذلك العصر وبهذا فشلت إسبانيا في تنفيذ مخططها الصليبي.